

قواعد الصرف والنحو في لغة الجسد



«هل تعرف متى يكذب عليك الآخرون؟ كيف تعرف إذا كنت قد نجت في لفت انتباه الموجودين؟ كيف السبيل إلى التمييز بين ابتسامة صادقة وابتسامة مزيفة؟ يجب هذا الموضوع على هذه الأسئلة وعلى الكثير غيرها استناداً إلى أحدث الاكتشافات التي حققها علم النفس وعلم الأحياء اللذان يردان على تساؤلاتكم حول طريقة التواصل القائمة بين الرجال والنساء في المنزل أو في المكتب.

حين تضم ذراعيك على صدرك، هل تضع الذراع اليسرى على اليمنى أو العكس؟ من الصعب أن تجيب على هذا السؤال من دون أن تقوم بالحركة المطلوبة. ضمّ ذراعيك واقلب الوضعية فوراً. إنّ أوّل وضعية هي التي تبدو مريحة بالنسبة إليك وليس الثانية، ومن المرجح أن يكون الأمر عائداً إلى سمات وراثية لا تستطيع تغييرها، هذا لأنّ سبعة أشخاص من أصل عشرة يضعون الذراع اليسرى على الذراع اليمنى.

عديدة هي الأبحاث والدراسات التي اهتمت بأصول الإشارات غير الكلامية لمعرفة ما إذا كانت موروثية أو مكتسبة أو فطرية. وأجريت اختبارات على النطاق الدولي على فاقد البصر منذ الولادة والذين لا يستطيعون اكتساب الحركات عبر تقليدها، وهذا في عدد من الثقافات المختلفة وكذلك أجريت اختبارات

على القروود. وأظهرت نتائج هذه الدراسات وجود حركات تنتمي إلى الفئات الثلاث المذكورة. فقد وجد الباحث الألماني إيبيل إيسفيلد أن الأطفال الصغار الذين ولدوا فاقد البصر يتسمون، من دون أن يكونوا قد تعلموا الابتسام. وفي دراسة حول تعابير وجوه أشخاص من ثقافات بعيدة جداً، دافع إيكمان وفريسن وسورسن عن النظرية الدروينية القائلة بالحركات الفطرية عند اكتشاف حركات وجوه متشابهة للتعبير عن بعض الانفعالات. وإذا كانت الاختلافات الثقافية عديدة، ولكن ثمة إشارات أساسية تنتمي إلى لغة الجسد وهي ذاتها في العالم أجمع.

ومع هذا يبقى العديد من الحركات التي نتساءل بصدها ما إذا كانت ثمرة العادة، أي ثقافية، أو الوراثة. فإذا كان الرجال يرتدون القميص من كمّه الأيمن أوّلاً، بينما تبدأ النساء بارتداء الكم الأيسر، فهذا لأنّ الرجال يستخدمون النصف الأيسر من دماغهم بينما النساء يستخدمن النصف الأيمن. وحين يمرّ رجل بامرأة في الشارع، يلتفت عامّة نحوها، بينما جسد المرأة في الوضعية ذاتها يبتعد بشكل غريزي عنه. فهل ردة الفعل هذه موروثه عند المرأة أو أنّها تأتي عبر تقليد غير واعي لموقف نساء أخريات؟

الإشارات البدائية الأساسية غالبية إشارات التواصل الأساسية هي ذاتها في العالم أجمع: يتسم الناس حينما يكونون سعداء ويعقدون حاجبيهم أو يعبّسون بتأثير من الغضب أو الحزن. هزّ الرأس من فوق إلى تحت هو إشارة على الموافقة أو التأكيد في كلّ الأمكنة تقريباً، لأنّه فطري على الأرجح ونجده عند فاقد البصر. أمّا هزّ الرأس أفقياً فهو للتعبير عن الرفض وهذه أيضاً حركة عالمية يبدو أنّها مكتسبة من الطفولة. فحين يكون الطفل قد رضع بما فيه الكفاية، تراه يدير رأسه رافضاً ندي أمّه. وحين يكتفي الطفل الصغير من الطعام، تراه أيضاً يدير رأسه أو يهزه يمنة ويسرة ليمنع الملعقة من الدخول إلى فمه وسرعان ما يتعلّم استخدام هذه الحركة ليعبّر بها عن رفضه في أمور أخرى.

ترجع أصول بعض حركاتنا إلى ماضيّا الحيواني البدائي. الابتسامة التي تكشف عن الأسنان هي مؤشر تهديد عند غالبية آكلي اللحوم، ولكنها تتصل عند الحيوانات الرأسيّة بحركات غير تهديدية تنم عن الخضوع. التكشير عن الأسنان وفتح المنخرين إشارة اعتداء موروثه عن الحيوانات الرأسيّة. فهي تستعمل هذا التعبير للقول إنّها مستعدة لاستعمال أسنانها من أجل الهجوم أو الدفاع. نجد الحركة ذاتها عند البشر علماً أنّهم لا يستخدمون أسنانهم للهجوم على أمثالهم.

رفع الكتفين يشكل هو أيضاً مثلاً جيّداً على الحركات العالمية التي تعني أنّنا لا نعرف أو لا نفهم ما يقوله الآخر. هي وضعية معقدة تتضمن ثلاث حركات: فتح راحتي اليدين لنذل على أنّنا لا نخبئ

فيهما شيئاً، رفع الكتفين لحماية الرقبة من أي اعتداء ورفع الحاجبين كإشارة عالمية على الخضوع.

قواعد تفسير الإشارات في وضعية معيّنة، لا تعكس الكلمات كما الحركات بالضرورة الحالة النفسية لدى الشخص الذي يصدرها. لتفسيرها بشكل صائب ينبغي احترام ثلاث قواعد رئيسية:

القاعدة الأولى: تفسير الوضعية الشاملة. واحد من الأخطاء الأكثر شيوعاً هو تفسير حركة ما من دون الأخذ بالاعتبار الحركات الأخرى أو السياق. فإذا حُكَّ أحدهم رأسه، تكون مروحة الإمكانيات واسعة: تعرّق، شك، قشرة رأس، قمل، مشكلة ذاكرة أو كذب. كلّ شيء يعتمد على الإشارات الأخرى التي يصدرها. فكما اللغة المحكية، تمتلك لغة الجسد قواعد وعلامات وقف ونحو خاصين بها. الحركة المعزولة لا قيمة لها أكثر من الكلمة المعزولة التي ترتدي معاني مختلفة حينما توضع في سياقها. لتجنب الخطأ، لا تراقب الوضعيات الجزئية إنّ لا ضمن وضعية شاملة. فالحركة الأساسية للتقييم النقدي هو وضع الكف على الوجه مع رفع السبابة ووضع الإبهام تحت الذقن، أمّا الشواهد الإضافية فهي ضم الساقين ووضع الذراع بشكل أفقي على الجسم وخفض الذقن. إنّها بمثابة "جميلة" جسدية كاملة تعني "أنا لا أحب ما تقول" أو "أنا غير متفق معك".

القاعدة الثانية: ابحث عن التناسق. دلت الأبحاث أنّ الإشارات الجسدية تحمل معاني خمس مرات أكثر من اللغة المحكية. وحين تتناقض اللغتان، يؤسس المحدث حكمه على الحركات أكثر منه على الكلام المقال. وعادة ما لا تعطي النساء أهمية للكلام المقال حينما لا يتطابق مع لغة الجسد. يروي سيجموند فرويد أنّ واحدة من مريضاته كانت تحكي له نجاح زواجها بينما هي تحرك خاتم زواجها ذهاباً وإياباً في إصبعها. ولم يدهش فرويد حينما حدثته هذه السيّدة بعد فترة عن المشكلات التي تعترى حياتها الزوجية. إنّ ملاحظة مجموع الحركات والتناسق بين الكلمات والحركات يشكلان أوّل مفتاحين لفهم لغة الجسد.

القاعدة الثالثة: اقرأ الحركات في سياقها. إنّ ملاحظة الحركات الجسدية يجب أن تأخذ في الاعتبار الوضع الذي تظهر فيه. إذا رأيت في يوم شتاء قارص شخصاً جالساً على مقعد في محطة انتظار الحافلة وهو يضم ذراعيه وساقيه ويدخل رأسه بين كتفيه، فهذا لا يعني أنّه في حالة دفاعية، بل هو يحاول بكلّ بساطة أن يحمي نفسه من البرد. بيد أنّ الحركة ذاتها عند شخص تحاول أن تبيع له شيئاً أو تقنعه بفكرة، يمكن أن تفسر على أنّها رفض لاقتراحك.

ويمكن القول بشكل عام أنّ حركات الأطفال أسهل على التفسير من الكبار. فالوجه يرتخي مع العمر كما

أنّ سرعة بعض الحركات ووضوحها يتضاءلان. إنّ الطفل الذي يبلغ الخامسة ويكذب، قد يغطي فوراً فمه بيد واحدة أو بكفتي يديه، وهذه إشارة يسهل تفسيرها من طرف الأهل. قد يلجأ المرء إلى هذه الحركة طيلة حياته. ولكنها ستكون أقل سرعة بشكل عام. فالمراهق الذي يكذب يستخدم حركة أقل وضوحاً، كأن يملس على شفته بأصبعه. فالحركة التي تقضي بتغطية الفم تتطور أكثر مع العمر. وحين يكذب البالغ، تسير الأمور كما لو أنّ دماغه يأمر يده بأن تغطي فمه في محاولة لصد الكلمات الكذابة التي ستخرج منه، كما كان يفعل حينما كان صغيراً. ولكن، في اللحظة الأخيرة، تتحول الحركة من الفم إلى الأنف. فنقول إنّها نسخة أكثر نضجاً عن الحركة الطفولية. وكلما تقدمنا في العمر، صارت حركاتنا أكثر خفاءً، وصار تفسيرها أكثر صعوبة بالمقارنة مع تفسير حركات الطفل. ►